سيجموند فرويد
العالم النفساني الكبير
للأستاذ صديق شيبوب

— ٥ —

حين أرى « فرويد » على السبعين كانت نظرياته فى علم النفس قد استحكمت حلقاتها وقامت كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً بعد أن عمل على تشييدها جزءاً فجزءاً ، وكان (الجزء يلد من الجزء تباعاً) كما يقول : « ليوناردو نينشى » ، وأخذت هذه النظريات تؤثر فى كل علم وفن . فهل استراح هذا الشيخ مطمئناً إلى ما قدم من خدمات وما أحرز من نصر ؟ »

لا شك أنه رأى مجال العمل ذا سعة ولكن أزعجه أنه سوف لا يجد فسحة من الأجل لإتمام ما يبتغيه من بناء للمستقبل . لذلك صار يلقى من القروة التى تسنم قمتها نظرة شاملة على الماضى على طريقته التحليلية المعهودة ، ولكنه بدلاً من أن يعالج الأعصاب والنفس فى الفرد ، أخذ يعالج العالم ويبحث التاريخ كمجموعة إنسانية فريدة ، وبدلاً من أن يوجه أبحاثه شطر السادة أخذ يسوقها ناحية المسائل النظرية بالرغم من أنه كان يأبى هذا التوجيه فى شبابه ، وهو القائل من قبل : « إنى لا أرضى عن تركيب النظريات العامة » فكأنه أراد أن ينتحل لنفسه الأعذار حين قال : « لقد طرأ على أساليبى فى العمل تغيير لا أنكر نتائجه . كنت من قبل لا أعرف كيف أحتفظ فى نفسى بنظرية أعتقد أنها جديدة وكنت أقضى بها بالرغم من أنه لم تجتمع لدى الأدلة على صحتها ... لأن الزمان كان منفسحاً أمامى ، كان الزمان خصباً واسعاً كما يقول شاعر ظريف . وكانت مواد البحث تتدفق عديدة بحيث أجد من السعة اختيار كل ما بين يدى . أما اليوم فقد تغير وضع الأشياء فالزمان محدود الأجل ، وفيه من الفراغ ما لا يسده العمل بعد أن تضاءلت ظروف الاختبارات الجديدة . فقد أصبحت لا أجرؤ على الإفضاء بما أكتشفه من جديد مخافة ألا أجد متسعاً من العمر للتدليل عليه ... »

سلخ « فرويد » خمسين عاماً من حياته لا يقابل فيها غير مرضاه ، ولا يعرف من الإنسانية غير أفرادها المصابين التاعسين فلا غرو إذا نظر إلى الحياة فى مجملها نظرة مليئة بالتشاؤم فى الكتابين اللذين وضعهما فى طور شيخوخته وهما « مستقبل وهم » و « علة الدنية » ، ولا غرو إذا قرر أن « الحياة عبء ثقيل على الإنسانية جمعاء كما هى على كل فرد »

عرض « فرويد » للانسانية فى عصرنا الحاضر فوجد أنها بلغت من الرقى حداً بعيداً بينما لم يستطع هذا الرقى أن ينيل الفرد السعادة التى يصبو إليها كل إنسان

وللتدليل على هذا استعرض « فرويد » تاريخ العالم منذ الإنسان الأول أى منذ كان الإنسان يجهل القوانين والأخلاق ويعيش كالبهيمة حراً طليقاً من كل قيد . وعندما تألفت الجماعات والقبائل حد هذا التآلف من أطماع الفرد وأهوائه ، لأن كل حياة اجتماعية مهما كان شكلها أولياً تحد من حرية الفرد فى سبيل إخوانه ، فصار لزاماً عليه أن يمتنع عن أشياء كثيرة ، فاستحدث الحرام والحلال ، ونشأت التقاليد والتواضع والحقوق والواجبات واستتبع هذه جميعها العقاب الذى يقع على من يخالفها

هل أنسى أن الصدق جعل لأعدائى حججاً دوامغ فى مقاومة مؤلفاتى ؟

الصدق فى الدنيا غريب ، وأنا فى الدنيا غريب ، والله هو المسئول عن رعاية الغرباء !

أما بعد ، ثم أما بعد ، فسأظل إلى الأبد عند ظنك الجميل ، وسأغفر لك التطاول علىّ من حين إلى حين ، لأنى آخر من يتذوق تجاهل المحبوب لأقدار الحبيب

من نعم الله أن نعيش قلباً إلى قلب ، لا جنباً إلى جنب ، فما كان الهوى العذرى إلا الروح المكنون فى قصيدة الوجود

وإلى اللقاء يا شقية فى عالم الفكر والوجدان

ولكن متى ؟ متى ؟ متى ؟ وأنت تؤمنين بأن البخل أشرف خلائق الملاح !

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة ... لم تثن فيها حكمة الحكماء
إن الذى خلق الملاحة لم يشأ ... إلا شقائى فى الهوى وبلائى

زكى مبارك

ولم تلبث معرفة الحرام وخوف العقاب ، وكانتا ظاهرتين ماديتين ، أن نفذتا إلى رأس الفرد وقلبه فاستحدثتا فيهما ما هو أبعد من الذات المادية ، أى أنهما أوجدتا فيه الضمير ، ونشأت فى الوقت نفسه الثقافة العقلية والفكرية والدينية ، وأوجدت فكرة الإله القدير العليم يقظة الضمير وكبت الشهوات فتحولت القوى المادية التى كانت تحرك الإنسان الأول إلى قوى عقلية وأخلاقية خالقة وأخذت تسيطر على العالم حتى أخضعت عناصره واستخدمتها فى سبيل غاياتها

ثم قرر « فرويد » أن الاختراعات والاكتشافات التى قربت الإنسان من درجة الألوهية من حيث الخلق لم توفر للانسانية أسباب السعادة ولم تدخل الغبطة والسرور عليها . وسبب ذلك أن الثروة الثقافية التى انتهى إليها الإنسان لم ينلها مجاناً لأن ثمنها الحد من حرية الغرائز . وكل ربح للانسانية خسارة تلحق بالفرد فى أسباب سعادته

تعاودنا فى أحلامنا ورغباتنا الغرائز التى أجبرتنا المدنية والأخلاق على كبتها ، ولا تزال القوات الأخلاقية تصبو إلى الفوضى والحرية والحيوانية التى كان الإنسان الأول يتمتع بها . فكأننا نفقد من حيويتنا كلما تقدمت المدنية . ويحق لنا إذن أن نتساءل : هل المدنية لم تسط على نفس الفرد ، وهل (ذات) المجتمع لم تصب (ذات) الفرد بتبن فاحش ؟

فما هو الدواء الذى يصفه « فرويد » لمعالجة العلة التى وصفها ؟

إن علم تحليل النفس يقرر نظرياً تفوق العقل الباطن والغرائز على العقل الواعى ، ويقرر عملياً أن تغلب العقل الواعى هو الوسيلة الوحيدة لشفاء الإنسان

ترى هل يصف « فرويد » للمجتمع ما قرره من قبل للفرد بعد أن لاحظ ما فى قوله من الاختلاف بين النظريات وبين العمليات ، وهو الذى قرر بشكل حاسم أن الغرائز الهمجية هى التى تسيطر على العقل

كان فرويد قد شهد الحرب الأخيرة ، ولاحظ تغلب الغرائز على العقل ، فلم يقرر علاجه تقريراً باتاً ولكنه رجا أن تصل إليه اليد الإنسانية بعد ردح من الزمان متطلعاً بالأمانى فقال : « نستطيع أن نستمر على القول فى حق بأن العقل الإنسانى ضعيف إذا قيس بالغرائز ، ولكن هذا الضعف أمر عجيب . إن صوت العقل خافت ولكنه لا يفتأ يتردد حتى يسمع ، والعقل لا أشك واصل إلى غايته فى النهاية بالرغم من اندحاره أكثر من مرة ، وهى ظاهرة من المسائل النادرة التى تحملنا على التفاؤل فى مصير الإنسانية . إن تفوق العقل قائم فى منطقة نائية ، ولكنها ربما كانت غير بعيدة المنال »

* * *

وكان آخر مؤلفات « فرويد » كتابه عن موسى وفكرة التوحيد عند اليهود ، وهو الكتاب الذى قرر فيه أن موسى لم يكن من العبريين ، وأنه كان مصرياً مستدلاً على ذلك باسمه . إن كلمة « موسى » فى رأيه مصرية معناها الطفل أو العبد بدليل اسم الملك « تحوتمس » أو « تحوت موسى » أى عبد « تحوت » فيكون اسم موسى اختزالاً كما نقول بالعربية « عبده » لعبد الله . وقد أطلقت ابنة فرعون عليه هذا الاسم المصرى الذى لم يكن معروفاً عند العبرانيين

كان موسى من رجال حاشية الملك أخناتون الذى كان أول من قال بالتوحيد عند قدماء المصريين ، وجرى بعد وفاة هذا الملك أن ثار الكهنة واستردوا سلطانهم فتفرق أشياعه ، ومنهم موسى الذى هرب من مصر وأخذ معه الإسرائيليين لأنهم كانوا مستعبدين مضطهدين

وقد عرض فى كتابه لأدلة عديدة مثل مصرية أسماء اللاويين الذين يقول إنهم كانوا أشياع موسى ، واقتباس العبريين عن المصريين الختان وتابوت العهد وهندسة بيت المقدس إلى غير ذلك مما يطول بنا بيانه .

* * *

هـذه آثار « فرويد » فى العلم والفكر . ولا شك أن اسمه سيظل عالقاً بنظرية العقل الباطن التى اكتشفها والتى جعلته زعيم مذهب تشيع له علماء كثيرون نذكر فى طليعتهم « يونج » و « ادلر » اللذين بنيا أبحاثهما على نظرياته ووصلا إلى نتائج تختلف عن نتائجه خصوصاً فى تفوق الغريزة الجنسية والتبيد ، وقد أراها بهذه الكلمة الأخيرة معنى آخر غير الذى قرره لها « فرويد »